الدرس (٠١٣) من شرح رياض الصالحين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد للّه رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فلا نزال في باب الصبر من كتاب رياض الصالحين لأبي زكريا النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

يقول المصنف أبو زكريا يحيى بن شرف النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

٢٦- (وعن أبي سعيدٍ سعدِ بن مالكِ بنِ سنانٍ الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَألوا رسولَ الله ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَألوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِندَهُ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ أَنْفَقَ كُلَّ شَيءٍ بِيَدِهِ: «**مَا يَكُنْ عِنْدي مِنْ خَيْر فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ. وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْر**»، مُتَفَقٌ عليه).

هذا الحديث من الأحاديث التي تدل على مكانة الصبر، وأن من يتصبَّر، أي: يلزم نفسه ويرغِّبها ويوطِّدها على الصبر.. (**«يُصَبِّرْهُ اللهُ»**)، أي: يرزقه الله الصبر، ويجعله من الصابرين.

وقد أخبر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن الصبر عطاءٌ من أوسع العطاء، قال صلى الله عليه وسلم: (**«وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْر»**)، بمعنى: أن من يوفق للصبر وفق للخير كله، لأن الصبر أساسٌ تقوم عليه الخيرات، ويقوم عليه التحلِّي بالفضائل.

والحديث له قصة ألا وهي أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ أن يعطيهم فأعطاهم، ثم سألوه ثانيةً أن يعطيهم فأعطاهم، حتى نفد ما عنده صلى الله عليه وسلم، وكان

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، فقال لهم حين أنفق كل شيءٍ بيده: («مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ»)، أي: سأعطيكم إياه.

ثم نبَّههم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على خصال جليلة وعظيمة، وبيَّن لهم في الوقت نفسه آثارها المباركة، فقال عليه الصلاة والسلام: («وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفهُ اللهُ»)، أي: من يتحلَّ بالعفاف، ويكن من أهله، ويجاهد نفسه على تحقيقه؛ يعفَّه الله.. أي: يكتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يكون من أهل العفاف.

(«وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ»)، أي: يستغنِ عمّا في أيدي الناس، فلا يسألهم ولا يطلب منهم، ويمنع نفسه من ذلك.. يغنه الله، أي: من واسع فضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والاستغناء» أن لا يرجو بقلبه أحداً فيستشرف إليه. «والاستعفاف» أن لا يسأل بلسانه أحداً ولهذا لما سئل أحمد بن حنبل رحمه الله عن التوكل قال: قطع الاستشراف إلى الخلق ; أي لا يكون في قلبك أن أحداً يأتيك بشيء فقيل له: فما الحجة في ذلك؟ قال: قول الخليل لما قال له جبرائيل هل لك من حاجة؟ فقال: «أما إليك فلا». فهذا وما يشبهه مما يبين أن العبد في طلب ما ينفعه ودفع ما يضره لا يوجه قلبه إلا إلى الله".

(«وَمَنْ يَتَصَبَّرْ»): على فقرٍ، أو على ألمٍ، أو على مصيبةٍ، أو على أي أمرٍ يحتاج إلى صبر.. («يُصَبِّرْهُ اللهُ»)، أي: يمن عليه بالصبر، ثم ذكر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن الصبر أوسع العطاء وأجزله، قال: («وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»). وهذا بعد نزول البلاء ليس للعبد أوسع من الصبر وأما قبله فالعافية أوسع له.

قال الحسن البصري رحمه الله: الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيراً مما انتزع منه.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

٢٧- (وعن أبي يحيى صهيب بن سنانٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**عَجَبًا لأمْرِ المُؤمنِ إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خيرٌ لَهُ ولَيسَ ذلِكَ لأَحَدٍ إلاَّ للمُؤْمِن: إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكانَ خَيراً لَهُ، وإنْ أصَابَتْهُ ضرَاءُ صَبرَ فَكانَ خَيْراً لَهُ**»، رواه مسلم).

هذا حديث عظيم مشتمل على فضيلة ومَكْرُمَة وخيرٌ خُصَّ به عباد الله المؤمنين، وهي أنهم شاكرون في السراء صابرون في الضراء، ففيه فضل الشكر على السراء، وفضل الصبر على الضراء. وأن من فعل ذلك حصَّل الخيرين في الدنيا والآخرة. أما من لم يشكر في السراء ولم يصبر في الضراء؛ يُفَوِّت على نفسه بذلك الأجر ويُحَصِّل بذلك الوزر.

والمسلم متقلب في هذه الحياة الدنيا بين رخاءٍ وبلاء، وعسرٍ ويسر، وفرحٍ وترح، وصحةٍ ومرضٍ وغنًى وفقر، وهو في كل تقلباته من خيرٍ وإلى خير في السراء والضراء، في الشدة والرخاء، في العسر واليسر، في الصحة والمرض، في الغنى والفقر وفي كل أحواله يتقلب من خيرٍ إلى خير؛ لأنه على يقين أن هذه الحياة دار ابتلاء وميدان امتحان.

والامتحان تارةً يكون بالسراء وتارةً يكون بالضراء كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] فهو سبحانه يبتلي بهذا ويبتلي بهذا والمؤمن ناجح في كلا الامتحانين؛ فإنه في امتحان السراء يفوز بثواب الشاكرين، وفي امتحان الضراء يفوز بثواب الصابرين.

ونبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: («**عَجَبًا لأمْرِ المُؤمنِ**») على وجه الاستحسان لهذه الحال العظيمة الكريمة التي أكرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها عبده المؤمن وهي لا تكون إلا للمؤمن، لأنها راجعة إلى إيمان المؤمن بأقدار الله، فإن قدر الله إما سراء وإما ضراء. فهو يتلقى السراء بشكر المنعم المتفضل، ويتلقى الضراء بالصبر واحتساب الأجر ورجاء الموعود؛ موعود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للصابرين: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وذلك لا يكون إلا للمؤمن**»؛ أي: أن الكافر في هذا الأمر على أسوأ حال وأشنعه؛ لأنه إن أصابته الضراء لم يصبر، بل يضجر ويتسخط. وإن أصابته سراء ونعم ومنن لا يشكر المنعِم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولنتأمل في هذا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٤٩-٥٠].

فهذه حال الكافر، وهي خلاف حال المؤمن المذكورة في الحديث.

فاحمد الله أيها المؤمن على هذه النعمة والمنة العظيمة أن هداك الله للإيمان الذي به تكون شاكرًا لربك المنعِم عليك في سرَّائك وصابرًا في شدتك وضرَّائك.

وقد تضمَّن الحديث حثٌّ على الإيمان والعناية به والمداومة عليه، وأن المؤمن دائمًا في خير وفي نعمة. وفيه حثٌّ على الصبر على الضراء وأنه من الخصال العظيمة، وأنَّ الواجب على المؤمن أن يتلقى المصائب بالصبر محتسبًا منتظرًا الفرج طامعًا فيما عند الله، وفيه حثٌّ على الشكر عند السراء، يتلقاها شاكرًا للمُنعِم معترفًا بفضله مستعملًا لنعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في طاعته لا فيما يسخط الله ويغضبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

٢٨- (وعن أنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ جعلَ يَتَغَشَّاهُ الكَرْبُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَاكَرْبَ أَبَتَاهُ. فقَالَ: «**لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ**» فَلَمَّا مَاتَ، قَالَتْ: يَا أَبَتَاهُ، أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ! يَا أَبَتَاهُ، جَنَّةُ الفِرْدَوسِ مَأْوَاهُ! يَا أَبَتَاهُ، إِلَى جبْرِيلَ نَنْعَاهُ! فَلَمَّا دُفِنَ قَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ التُّرَابَ؟! رواه البخاري).

هذا الحديث فيه أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لمَّا ثقُل، وتغشَّاه الكرب، أي: كرب الموت، والمفارقة لهذه الحياة، كانت ابنته فاطمة رضي الله عنها وأرضاها تتألم لهذا الكرب العظيم، وكانت تقول: (وَاكَرْبَ أَبَتَاهُ!) ثم لما مات عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كانت تقول: (يَا أَبَتَاهُ، أَجَابَ رَبًّا

دَعَاهُ! يَا أَبَتَاهُ، جَنَّةُ الفِردَوسِ مَأْوَاهُ! يَا أَبَتَاهُ، إِلَى جبْرِيلَ نَنْعَاهُ!)، وهذه الكلمات التي قالتها رضي الله عنها، ليست من باب التسخُّط، فلا تنافي الصبر، وإنما هي من يسير الندب الذي لا يتنافى مع حقيقة الصبر.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما الكلمة اليسيرة اذا كانت صدقًا لا على وجه النوح والتسخط فلا تحرم ولا تنافي الصبر الواجب»[1] ثم أورد رحمه الله هذا الحديث ونظائر له ثم قال: «وهذا ونحوه من القول الذي ليس فيه تظلم للمقدور ولا تسخط على الرب ولا إسخاط له فهو كمجرد البكاء».

فالحديث فيه بيان مكانة الصبر على المصائب، وأن الواجب على المسلم أن يتحلى به، وأن يكون من أهله.

وإذا كان أشرف خلق الله، وأعلاهم مكانةً، وأحبهم إلى الله.. سيد ولد آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قبضت روحه، وموته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مصيبةٌ هي أعظم المصائب، فهذا فيه أيضًا ما يسلي المسلم في مصيبته، فإن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**إذا أصيب أحدكم بالمصيبة، فليتذكر مصيبته بي، فإنها أعظم المصائب**».

والواجب على المسلم في كل مصابٍ يمر به، أن يتحلَّى بالصبر، وأن يستعين عليه بالصبر، حتى يفوز بمقام الصابرين.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

٢٩- (وعن أبي زَيدٍ أُسَامَةَ بنِ زيدِ بنِ حارثةَ مَوْلَى رسولِ الله ﷺ وحِبِّه وابنِ حبِّه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أرْسَلَتْ بنْتُ النَّبيِّ ﷺ إنَّ ابْني قَد احْتُضِرَ فَاشْهَدنَا، فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلامَ، ويقُولُ: «**إنَّ لله مَا أخَذَ وَلَهُ مَا أعطَى وَكُلُّ شَيءٍ عِندَهُ بِأجَلٍ مُسَمًّى فَلتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**» فَأَرسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيهِ لَيَأتِينَّهَا. فقامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابتٍ، وَرجَالٌ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فَرُفِعَ إِلَى رَسُول الله ﷺ الصَّبيُّ، فَأَقْعَدَهُ في حِجْرِهِ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ، فَفَاضَتْ عَينَاهُ فَقالَ سَعدٌ: يَا رسولَ الله، مَا هَذَا؟ فَقالَ: «**هذِهِ رَحمَةٌ جَعَلَها اللهُ تَعَالَى**

في قُلُوبِ عِبَادِهِ» وفي رواية: «فِي قُلُوبِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، وَإِنَّما يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبادِهِ الرُّحَماءَ» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وَمَعنَى «تَقَعْقَعُ»: تَتحرَّكُ وتَضْطَرِبُ).

أي: أن طفلها كان في النزع، وفي اللحظات الأخيرة. وبنته هذه هي زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فهذا الحديث مثالٌ من الأمثلة في الواجب عند المصيبة، وأن الواجب على من أصيب بمصيبةٍ، بفقد عزيز، أو بتلف مالٍ، أو حصول مرضٍ، أو غير ذلك، أن يتلقَّى ذلك بالصبر، فيصبر ويحتسب، ولهذا قال لها النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («إِنَّ لله مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أعطَى وَكُلُّ شَيءٍ عِندَهُ بِأجَلٍ مُسَمًّى»).

وهذا الإيمان والعقيدة إذا تحققت في قلب المسلم واستحضرها، فإنها بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تُسلِّيه في مصابه، لأن الأمر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وما كان من عطاء فهو من الله، وما كان من أخذٍ أيضًا فهو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فله ما أخذ وله ما أعطى.

إذًا الواجب على الإنسان في المصاب أن يتحلى بالصبر، فلا يجزع، ولا يسخط، وعليه أن يحبس لسانه عن التشكي والتسخط، وأن يحبس أيضًا جوارحه عن فعل ما لا يليق، ممَّا قد يفعله بعض الناس عند المصائب، من شقِّ جيوبٍ، أو لطم خدودٍ، أو دعوى بدعوى الجاهلية، فيحذر كل ذلك، ويتحلَّى بالصبر.

وأيضًا يحتسب أجر ذلك المصاب عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لمَّا أرسلت إليه ابنته أن يشهدها لأن ابنها يحتضر، فأرسل إليها يذكر لها حقيقة الأمر، وأن الأمر بيد الله، وأن لله ما أخذ، وأن له ما أعطى، وأن الذي ينبغي عليها أن تصبر وتحتسب، لكنها رغبت أن يحضر النبي بنفسه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عندها، (فأقسمت عليه)، أي: بالله عَزَّوَجَلَّ ليأتينَّها، فذهب إليها ﷺ مع جماعةٍ من أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(فَرُفِعَ إِلَى رَسُول الله -أي: الصبي- فَأَقْعَدَهُ فِي حِجْرِهِ ﷺ، وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ)، فلما شهد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مفارقة هذا الصبي للحياة فاضت عيناه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، رحمةً وشفقةً، مع صبرٍ واحتساب.

ولهذا لا يتنافى مع الصبر أن تدمع العين، أو أن يحزن القلب، ولهذا فاضت عيناه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فقال له سعد: (يَا رسولَ الله! مَا هَذَا؟)، أي: دمع العين، فقال: («هذِهِ رَحمَةٌ جَعَلَها اللهُ تَعَالَى في قُلُوبِ عِبَادِهِ»)، وفي بعض الروايات: («فِي قُلُوبِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، وَإِنَّما يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبادِهِ الرُّحَماءَ»).

وهذا يبين لنا أن هذه الرحمة التي تكون عند مثل هذه الحال، لا تتنافى مع الصبر، بل هي رحمةٌ يجعلها الله في قلوب من شاء من عباده، فيكون العبد صابرًا، وفي الوقت نفسه تدمع عينه، ويحزن قلبه رحمة جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قلبه.

روى البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ، وَكَانَ ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ تَذْرِفَانِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ: «**يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى**» فَقَالَ ﷺ: «**إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**».

هذا ونسأل الله أن يوفقنا أجمعين لكل خير، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا، وأن يصلح شأننا كله؛ إنه سميع قريب مجيب. وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.